بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ملف جمعت فيه ما وقفت عليه من كلام أهل العلم، حول أسرار البلاغة في مواضع من القرآن الكريم.

والقرآن الكريم كله بليغ، لكن لا يحيط به علما أحد، ولا تنقضي عجائبه وبلاغته كلما تأمل فيه المرء.

فلا تلتفت أخي القاريء إلى التقاسيم التي قسمتها، فإنما هي جهد شخصي، ولكن عليك بالتأمل فيما نقلته.

ويسعدني تقبل ملاحظاتكم على البريد الإلكتروني: aabumoosa@gmail.com

والله الموفق

أولا: حذف بعض الكلام من السياق لدلالة ما سبقه أو لحقه

- ومنه قوله تعالى {قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة}، فقد كان من المفترض في بداء العقول أن يقول: فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى تقاتل في سبيل الشيطان، أو يقول: فئة مؤمنة وأخرى كافرة، ليتناسب المتقابلان، ولكن الله عز وجل أراد أن يحرك العقول لتأتي بالمحذوف ويكتمل المعنى المراد، فحذف من القسم الأول كلمة (مؤمنة) لأنه قد دل عليه القسم الثاني، وحذف من القسم الثاني (تقاتل في سبيل الله الشيطان) لأنه قد دل عليه القسم الأول، فكأنه قال: قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان.

  وإنما ذكر الله تعالى أخص صفة في كل فريق، فأخص صفات المؤمنين، أنهم يجاهدون في سبيل الله، وأخص صفات الكفار كفرهم؛ لأن كفرهم دعاهم إلى كل معصية وفسق.

- ومنه قوله تعالى {وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم}، فإن قوله {فلولا نفر} كان المفترض أن يقول: نفر للجهاد، وليس للتفقه في الدين، وإنما المعنى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد، وبقيت طائفة ليتفقهوا، فأخذ مهمة الطائفة الأولى من كون مهمة الطائفة الثانية التفقه، وأخذ بقاء الطائفة الثانية من نفير الطائفة الأولى.

- ومنه قوله تعالى {واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا} فالفعل تبتّل مصدره (تبتّلا)، والمصدر (تبتيلا) فعله (بتّل)، وأصل التبتل الانقطاع، لكن الفعل (تبتل) فيه معنى التدرج والتكلف، والفعل (بتّل) يدل على الكثرة والمبالغة، فجمع بين الفعلين، بأن أتى بالفعل (تبتل) وبالمصدر (تبتيلا) الدال على الفعل (بتّل)، فكانه قال: بتل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً، ففُهم المعنيان من الفعل ومصدره.

ومثل ذلك قوله تعالى {فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً}، والأصل (تقبلا) و (إنباتا)، والفعل من (قبول) (قبل)، والفعل من (نباتا) (نبت)، فجمع لها بين كمال الإنبات الإلهي، وكمال النبات البشري، فكأنه قال: وأنبتها إنباتا حسنا، ونبتت هي نباتا حسنا، فالله أنبتها، وهي لكرم معدنها طاوعت الإنبات الحسن.

- ومنه قوله تعالى {إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين}، ولم يقل (قريبة)، قال ابن القيم: "الرحمة صفة من صفات الرب تبارك وتعالى، والصفة قائمة بالموصوف لا تفارقه، لأن الصفة لا تفارق موصوفها، فإذا كانت قريبة من المحسنين، فالموصوف تبارك وتعالى أولى بالقرب منه، بل قرب رحمته تبع لقربه هو تبارك وتعالى من المحسنين.

فالرب تبارك وتعالى قريب من المحسنين، ورحمته قريبة منهم، وقربه يستلزم قرب رحمته، ففي حذف التاء ههنا تنبيه على هذه الفائدة العظيمة الجليلة وأن الله تعالى قريب من المحسنين وذلك يستلزم القربين: قربه وقرب رحمته"

ثانيا: الالتفات

الالتفات هو تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى وجه آخر، كتحويل الخطاب من الغائب إلى المتكلم أو العكس.

مثال ذلك:

1- قال تعالى {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة} فقوله {كنتم} خطاب، وقوله {وجرين بهم} للغائب.

2- قال تعالى {الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين}، فمن أول السورة إلى قوله {مالك يوم الدين} للغائب، وقوله {إياك نعبد} للخطاب.

3- قال تعالى {إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر} فقوله {إنا أعطيناك} خطاب من المتكلم وهو الله، ثم تحول الخطاب للغيبة، فتحدث الله عن نفسه جل وعلا بأسلوب الغائب فقال {فصل لربك} ولم يقل: فصل لنا.

4- قال تعالى {ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل، وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً} ولم يقل: وبعث، فهنا التفت من الغائب إلى المتكلم.

5- قال تعالى {الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم} ففيها التفات من الغيبة للتكلم، ثم من التكلم إلى الخطاب.

** **ذكر العلماء أن للالتفات فوائد**، وهي على نوعين:

أولا: فوائد عامة، وهي التي تكون في كل التفات في القرآن الكريم، وهو مجاراة اللغة العربية والبلاغة في الانتقال من أسلوب إلى آخر، وتنشيط السامع، واستجلاب صفائه، وانتباهه.

ثانيا: فوائد خاصة، وهي التي تكون في كل موضع بحسبه، فمن ذلك:

1- الالتفات في قوله {وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون * وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون}، وأصل الكلام: (وما لكم لا تعبدون الذي فطركم)، ولكنه أبرز الكلام في معرض النصح لنفسه، وهو يريد نصحهم؛ ليتلطف بهم، ويريهم أنه لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، ثم عاد للالتفات مرة أخرى في قوله {وإليه ترجعون}؛ ليدل على ما كان من أصل الكلام ومقتضيا له.

2- التنبيه على الإظهار في موضع الإضمار، كما في قوله تعالى {فيها يفرق كل أمر حكيم * أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم}، وأصل الكلام: (إنا كنا مرسلين، رحمة منا)، ولكنه وضع الظاهر {من ربك} موضع المضمر (منا) لبيان أن الربوبية تقتضي الرحمة للمربوبين.

3- الالتفات في قوله تعالى {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة}، والأصل (وجرت بكم) فانتقل من الخطاب إلى الغيبة، لبيان المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم، ليعجب منها، ويستدعى الإنكار والتقبيح عليهم، وفيه فائدة أخرى وهي أن خطاب في قوله {كنتم في الفلك} فيه امتنان وإظهار نعمة للمخاطبين، والمسيّرون في البر والبحر مؤمنون وكفار، والخطاب شامل،

فحسن خطابهم بذلك ليستديم الصالح على الشكر، ولعل الطالح يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذكر حال المكذبين انتقل إلى الغيبة، حتى لا يكون المؤمنون يخاطبون بصدور مثل هذه الحالة عنهم.

4- الالتفات في قوله تعالى {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير}، والأصل (ليريه من آياته)، والتفت هنا لبيان عظمة منة الله عليه، وعظم الآيات التي رآها، فإن الله تعالى نسب هذه الآيات إلى نفسه نسبة تعظيم وتشريف.

5- الالتفات في قوله {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدا} والأصل (لقد جاؤوا)، والتفت لبيان قبح مقالتهم، والتوبيخ عليها. [ذكر د. حسن طبل في كتابه "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية" جملة من الآيات التي فيها التفات وتوجيه المعنى الخاص لها من ص103 وما بعدها]

ثالثا: تصعيد الفجيعة

- ومنه قوله تعالى {أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين}، فإذا كانوا اشتروا، فمعناه أن هناك ثمن وهناك سلعة، فهؤلاء اشتروا الضلالة، ودفعوا ثمن ذلك الهدى، وإذا كانوا دفعوا الثمن، فمعناه أن الثمن عندهم، وهم يملكوه، وهذا حق، فإنهم قد دلوا على طريق الهدى، فكأنهم ملكوه، وهم مع ذلك اشتروا به الضلالة، لكن بيعهم وصفقتهم هذه خاسرة، ولهذا قال فما ربحت تجارتهم، وإذا لم تربح تجارتهم، فقد يتأمل البعض، ويقول: إذا لم تربح، فيمكن أن يكون رأس المال ما زال معهم، كعادة التجار، قد يخسر قليلا لكن يظل معه بعض رأس المال، لقوم على تجارته من جديد، لكنه هنا صعد الفجيعة بعد قوله {فما ربحت}، فقال {وما كانوا مهتدين}، أي أنهم خسروا السلعة، وخسروا الثمن الذي كان معهم أيضا
- ومنه قوله تعالى {وإن يستغيثوا يغاثوا} ثم صعد وقال {بماء كالمهل}.

- ومنه قوله تعالى {والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب}، فالفجيعة الأولى أنه جاء السراب فلم يجده شيئا، لكنه الأكبر أنه قد وجد الله عنده، فكأنه فوجيء بلقاء الله تعالى.

رابعا: انتقاء الألفاظ

بحيث لا يصلح لفظ مكان اللفظ المنتقى، والإتيان بآيات متشابهات في اللفظ مختلفات في المعنى بحسب السياق، وهذا له أمثلة كثيرة وهو على عدة أشكال:

الجمع والإفراد والتعريف والتنكير

- ومنه قوله {أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء}، بينما في آية أخرى قال {وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم}، فإفراد الطفل في القرآن يكون في حال طفولتهم، فكأنهم طفل واحد، ونظرهم إلى النساء شيء واحد، فالأطفال غرائزهم مشتركة، ومشتركون في حب اللهو اللعب، أما إذا كبروا وانتقلوا إلى مرحلة البلوغ، فسيكون لكل واحد منهم ميل، وفكر، ونظر مختلف عن الآخر، وتمييز بين القبيح والحسن مختلف من واحد لآخر، ولهذا في البلوغ جمع وقال (الأطفال)، وفي نفس السياق قوله تعالى {هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا}، فالكل كطفل واحد، ولهذا قال بعدها {ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا} ولم يقل (شيخا).
- ومنه قوله {وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه}، فعرف (الضر) ثم نكره (ضر)؛ لأن الآية مسوقة لإبراز المفارقة بين حال الإنسان وقت الشدة، وحاله بعد زوالها، ففي الحال الأولى يكون متوجها إلى خالقه، ملحا في دعائه، متوسلا إليه في كل حال من أحواله {لجنبه أو قاعدا أو قائما}، فالضر –وإن كان يسيرا– قد استحوذ على تفكيره، وأصبح شغله الشاغل، فلما كشف الله عنه الضر، أصبح بالنسبه له كأنه نكرة، ففيه إيحاء بأنه ما إن يكشف الله عز وجل ضر الإنسان حتى يتوارى ذلك الضر بعيدا عن محور اهتمامه، وبؤرة شعوره، ويصبح في هامش ذاكرته شيئا أقرب إلى المجهول.

وقد يقال إن (الضر) في الموضعين معرفة، وإن اختلف نوع التعريف، فهو معرفٌ أولاً بأل، ومعرفٌ أخيرا بالإضافة، فلم يزل معرفة، لكن يمكن الدلالة على المراد بملاحظة أن صاحب الكرب كان يعد نفسه في (الضر) الذي هو حقيقة الضر وغايته ومنتهاه، ولا شك أن من يظن نفسه كذلك سيكون في غاية العبودية والانكسار.

فلما كشف الله عنه البلاء، نسي بسبب لؤمه وخساسة طبعه ما كان يعاني، فظهر له أنه لم يكن في الضر الحقيقي الكامل الذي من شأنه أن يهلكه، بل كان في ضر ألم به كما يلم بغيره، فأضاف الضر إلى شخصه ولم يجعله عاما كما في التعبير الأول.

- ومنه أن لفظ الرياح مجموعة يأتي في الغالب للبشرى، ولفظ الريح مفردة يأتي في الغالب للعقوبة، ومنه قوله تعالى {ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات}، وقوله {ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون}، وقوله {ريح فيها عذاب أليم}، وإنما قلنا في الغالب لأنه جاءت الريح مفردة للبشرى، وذلك في مواضع ثلاثة:

الموضع الأول: في ريح سليمان في جميع الآيات الواردة فيها، وهي قوله تعالى {فسخرنا له الريح تجري بأمره} {ولسليمان الريح عاصفة} {ولسليمان الريح غدوها شهر}.

الموضع الثاني: في قوله تعالى {هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف}.

الموضع الثالث: في قوله تعالى في سورة الأحزاب {اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها}.

ولعل الحكمة في إفراد الريح في المواضع السابقة، أن سليمان سخرت له ريح، وليست كل الرياح مسخرات له، أما الموضع الثاني فإن الفلك لا بد لها من ريح، لأنه لو هبت عليها رياح فستضطرب، ولهذا قيدها بقوله {طيبة}، أو يقال إن هذه الريح كانت للاستدراج، فهي في حقيقتها ليست بشرى، أما قوله {طيبة} فيقال هي في ظاهرها طيبة، وإن كانت تحمل وراءها العذاب، والموضع الثالث كانت الريح نعمة على المؤمنين، ونقمة على الكافرين، فغلب جانب

النقمة وأتى بها مفردة، لأن هذا هو الأهم بالنسبة للمسلمين في ذلك الوقت. [ينظر بدائع الفوائد 119/1]

- ومنه قوله تعالى {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور}، وقال بعد ذلك {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات} فجمع الظلمات، بينما لم يقل الأنوار، لأن النور مصدره واحد وهو الله تعالى، بينما سبل الشيطان متنوعة ومتعددة.
- ومنه قول إبراهيم {رب اجعل هذا بلدا آمنا}، وفي آية أخرى قال {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}، فنكّره في الأولى، وعرفه في الثانية، فكأنه قبل المقام في البلد وبنائها، قال {بلدا} فنكرها لأنها لم تكن بلدا بعد، وبعد المقام بها قال {البلد}، فطلب الأمن لذلك البلد في البداية والنهاية.
- ومنه قوله تعالى {جاءتها ريح عاصف}، بينما قال في ريح سليمان {ولسليمان الريح عاصفة}، قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: "ويقال: ريح عاصف، بغير هاء، وعاصفة.

فمن قال: عاصف، بغير هاء، قال: العُصوف لا يكون إلا للريح وهي أنثى.

ومن قال: عاصفة، بناه على المستقبل [يعني المضارع]، أي تعصف.

قال الله جل ثناؤه: {جاءتها ريح عاصف}، على معنى: قد عصفت وانقطع العصوف.

وقال الله جل وعز في موضع آخر: {ولسليمان الريح عاصفة}، على معنى: تعصف إذا أمرها سليمان صلى الله عليه، بإذن الله عز وجل" [المذكر والمؤنث 152/1]

ومنه يقال في اللغة حائض ومرضع، ويقال أيضا حائضة ومرضعة، وقد ذكر القرافي أن بعض أئمة اللغة قال: "إن أردت الحالة المستمرة والصفة المعتادة قلت: حائض، وطاهر، وطالق، وإن أردت الحالة الحاضرة قلت: حائضة، وطاهرة، وطالقة" [الذخيرة 371/1]

وقال ابن القيم: "المرضع من لها ولد ترضعه، والمرضعة من ألقمت الثدي للرضيع وعلى هذا فقوله تعالى: {يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت} أبلغ من مرضع في هذا المقام، فإن المرأة قد

تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة فإذا التقم الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر أعظم عندها من اشتغالها" [بدائع الفوائد 21/4]

التغاير بين كلمتين

- ومنه قوله تعالى {ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم}، فعبر في نجاة موسى بقوله (البحر) وفي هلاك فرعون (اليم)، لأن أصل مادة (ب ح ر) تدل على المكان الواسع الجامع للماء، ومادة (ي م م) هو البحر الذي لا يدرك قعره على ما قاله بعض العلماء، فالتعبير الأول يلحظ معنى السعة التي فيها النجاة لموسى ومن معه، والتعبير الثاني يلحظ معنى العمق الذي فيه هلاك فرعون ومن معه.
- وقيل إن منه قوله تعالى {ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة}، فالقرآن الكريم يعبر عن الانسجام التام بين المرأة والرجل في العلاقة الزوجية بالزوجة، ومثله قوله تعالى {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين}، وقوله تعالى {وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة}، فإذا لم يحصل الاستقرار التام إما لاختلاف الدين بين الزوج والزوجة، أو لوجود مكدر في الحياة، فإنه يذكر الزوجة باسم المرأة، ومنه قوله تعالى {ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط} فالزوجة كافرة، وقوله تعالى {وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون} فالزوج كافر، ومنه قوله تعالى في دعاء زكريا عليه السلام أن يرزقه الله ولدا، حيث قال{وكانت امرأتي عاقرا}، فجعل ذلك سببا لعدم التوافق التام بينه وبينها، ولما بشره الله بالولد قال {أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر}، فلما رزقه الله الولد حقيقة قال تعالى {وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه}

وهذا غير مضطرد، فقد يأتي لفظ (امرأة) ويقصد به الزوجة، كما في قوله تعالى في قصة إبراهيم مع الملائكة {فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها}، وقوله {إذا قالت امرأة عمران رب إني

نذرت لك ما في بطني}، وقد يأتي لفظ (الزوج) حتى مع عدم الانسجام، كما في قوله {وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج}، وأتى لفظ (نساء) وهو جمع امرأة في نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– كما في قوله تعالى {يا نساء النبي}

- ومنه أن القرآن يفرق في كثير من الأحيان بين العام والسنة، فالسنة فيها شدة وبؤس، والعام في رخاء، وهذا غالبا، كما قال يوسف عليه السلام {تزرعون سبع سنين دأبا}، وقال {ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون}، ومثل قوله {ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين}، وقوله {فأماته الله مائة عام}، لأنه لم يكن حيّاً حينها، ولم يعانِ شدتها، بخلاف قوله {ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً} فقد كانوا أحياء وهم رقود، وإن كان المثال الأخير قد لا يستقيم كثيرا، ومنه قوله تعالى عن نوح {ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما} فالسنين التي قضاها في قومه كان فيه العناء والتعب، بينما الخمسون الباقية كان رخاء مقارنة بما قبلها.
- ومنه أنه يقول في بعض المواضع {الذين آتيناهم الكتاب}، وفي مواضع {الذين أوتوا الكتاب}، والفرق بين الموضعين، أنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعا في سياق الذم أو منقسما، ومثاله قوله تعالى {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا}، وقوله {فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى}، ومنه قوله تعالى {فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما}، وقوله {ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين}، وقوله {الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون، وإذا يتلى عليهم قالوا ءامنا به إنه الحق من ربنا}، وقوله {نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون}، وقوله {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون}، وقوله {ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا}. [ذكره ابن القيم في بدائع الفوائد]

اختلاف صيغ الأفعال

- ومنه قوله تعالى {الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس}، ففي الإنفاق عبر بالفعل المضارع، وفي كظم الغيظ والعفو عن الناس عبّر باسم الفاعل، وسبب ذلك والله أعلم أن الصفة الأولى لا تتحق إلا عند تجددها على اختلاف الظروف وتنوع الأحوال، وهي دلالة الفعل المضارع (ينفقون)، أما كظم الغيظ والعفو عن الناس فإنها لا تتحقق إلا بالثبات عليها ومصابرة النفس عليها، وهي دلالة اسم الفاعل.
- ومنه قوله تعالى {إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة}، ففي التسبيح عبر بالفعل المضارع (يسبحن)، وفي الحشر عبر بالاسم (محشورة)، والسر في ذلك كما قال الزمخشري أن التسبيح من الجبال متكرر، وحادث شيئا بعد شيء، بخلاف الحشر له، فإنه لا يحصل إلا إذا أراد ذلك؛ لأن شأن الطير الحركة والتنقل.
- ومنه قوله {الحمد لله رب العالمين} ولم يقل (احمدوا الله)، بل جاء بالجملة الاسمية، لتدل على الثبوت والاستمرار، فكأن الحمد ثابت لله قبل أن يوجد من يحمده، فالله تعالى لم يستفد بحمد الحامدين كمال، كما لم يحصل له بكفر الكافرين نقص، ومن أمثلة الإتيان بالجملة الاسمية لتدل على الثبوت والاستمرار قوله تعالى {وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا}، ولم يقل (وكلمةَ) لأن كلمة الله تعالى هي العليا بدون جعل، ومنه قوله تعالى عن الملائكة {قالوا سلاما قال سلام}، فقول إبراهيم: {سلام} أكمل من سلام الملائكة؛ لأنه جملة اسمية، و(سلاما) جملة فعلية، ومنه قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا}، ولم يقل (ولا يجزي مولود عن والده) بل جاء بالجملة الاسمية، وذلك أن الإنسان يدخر ولده لنفعه، ودفع الأذى عنه، فأراد الله حسم ذلك الأمر، ودفع توهم أن الولد قد يغني شيئا عن والده، فجاء بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستقرار.

- ومنه قوله تعالى {وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما} فقال في إعادة الكلام لهم أول مرة {اقتتلوا} بالجمع، مراعاة لكون الطائفة مكونة من مجموعة من الناس، فأشار للجميع بالجمع، وكان القياس أن يقول: فأصلحوا بينهم، ليكون الكلام على وتيرة واحدة، لكنه أعاد الكلام عنهم في المرة الثانية بمراعاة كونهم طائفتين فقط، والجواب على ذلك بأن هذا من بلاغة القرآن الكريم، فالطائفة عندما تقاتل يكون لكل فرد من أهل القتال فيها مهمة، فهذا يضرب، وهذا يحرس، وهذا يزود بالعدد، وغير ذلك، لكن عند التصالح، لا نأتي بكل فرد من الطائفة ونصلحه مع الطائفة الأخرى، بل نأتي برأس الطائفة الأولى، ونصلحه مع رأس الطائفة الثانية، ففي الأول كلهم جماعة، وفي الثاني رأسا الطائفتين يتصالحان، ويتصالح الأتباع تبعا.
- ومنه قوله تعالى {وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون}، وهنا ثلاثة أمور:

الأول: كان القياس عندما عطف الجملة الثانية أن تكون مجزومة كجواب الشرط، فكان القياس أن يقول (ثم لا ينصروا).

والثاني: أنه قال {ثم}، وكان القياس أن يقول (فلا)، لأن الفاء للتعقيب، وهو قد ذكر {وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار}، فكان القياس أن يعقب مباشرة (فلا ينصروا).

والثالث: أنه قال {ينصرون}، ولم يقل ينتصرون.

وجواب ذلك أن الجملة التي عطفها هي مستقلة بذاتها، وذلك جاء بهذه الكسرة الإعرابية، ليلفت الانتباه إلى أن ما سيأتي شيء مستقل، وقاعدة مستقلة، وخبر تأكيدي للمستقبل كله، وكأنه يقول: إن يقاتلوكم الآن يولوكم الأدبار، ثم لا ينصرون بعد ذلك، أما العطف بثم دون الفاء، فيفهم مما سبق، أن الشارع يتكلم عن قضية كلية وقاعدة ستكون في كل المستقبل، فجاء بثم التي تكون للتراخي، يعني في كل مرة تالية لا ينصرون، أما قوله {لا ينصرون} دون قوله: ينتصرون، فهو أقوى، لأن معناه لا ينصرون بأنفسهم ولا بغيرهم، وإن شئت فقل: كلمة ينصرون توحي بوجود معين لهم خارجي، وكلمة ينتصرون توحي بانتصارهم بأنفسهم، فإذا كان لا ينصرون حتى مع معين خارجي، فمن باب أولى ألا ينتصروا بأنفسهم.

اختلاف ترتيب الكلام

- فمنه قوله تعالى {ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم} في سورة الأنعام، بينما قال في الإسراء {ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم}، والفرق بينهما أن الإملاق في الأولى حاصل، فبدأ برزق الآباء لأن الخطاب لهم، بينما في الثاني قال {خشية} فهو غير حاصل، فبدأ برزق من يخاف على رزقهم وهم الأولاد.
- ومنه قوله تعالى في سورة آل عمران {وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم}، بينما قال في سورة الأنفال {وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم}، فآية الأنفال تتحدث عن غزورة بدر، وآية آل عمران تتحدث عن غزوة أحد على الصحيح، ولهذا قال في آل عمران {بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم}، ومن المعلوم أن بدرا كانت قبل أحد.

ففي سورة الأنفال قال {وما جعله الله إلا بشرى} لتكون البشرى عامة للجميع، بينما في آل عمران كان الاهتمام بالمخاطبين، فجعل البشرى لهم لو صبروا، وأكد الاهتمام بهم فقال {بشرى لكم}، ولأجل ذلك أيضا قدم {قلوبكم} ليكون الأسلوب في الطرفين اهتماما بالمخاطبين.

وفي الأنفال كان الاهتمام بالبشرى، لا بالمخاطبين، فلهذا جعلها عامة {إلا بشرى}، واستكمل الخطاب اهتماما بالبشرى فقال {به قلوبكم}

وفي الأنفال قال {إن الله عزيز حكيم}، لأن آية الأنفال تتحدث عن غزوة بدر، وآية آل عمران تتحدث عن غزوة أحد، فقرر في بدر ب (إن الله)، أما في آل عمران فاكتفى بما تقرر من قبل فقال {من عند الله عزيز حكيم}

- ومنه قوله في سورة يس {وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى}، بينما في سورة القصص قال {رجل من أقصا المدينة يسعى}، ففي سورة يس بدأ ببيان مكان الرجل قبل ذكره، وفي قصة موسى حين قتل القبطي ذكر الرجل قبل مكانه؛ والسر في البدء بالمكان في قصة الرجل المؤمن عدة أمور:

الأول: إفادة أن الرسالة التي جاء بها الأنبياء عليهم السلام آتت أكلها حيث بلغت أقاصي المدينة وأطرافها، ولم يذهب جهدهم سدى، فقد قاموا برسالتهم على أكمل وجه مع التكذيب الذي صدر من معظم أهل القرية، والله سبحانه يبارك في جهد المخلصين دنيا أو آخرة .

الثاني: الإشارة لفضل الرجل المؤمن وعظم منزلته حيث إنه قطع مسافة طويلة قادما من أقصى المدينة وأطرافها معلنا اعتقاده بالدين الجديد، ومبينا موقفه من الرسل، ولعل هذا السبب في التعبير عن القرية بالمدينة، حيث جاء في البداية {واضرب لهم مثلا أصحاب القرية}، ثم قال بعد ذلك {من أقصى المدينة}، ما يشير إلى بعد الشقة والمسافة التي قطعها.

ثالثا: فيه إشارة إلى أن ذلك الرجل كان مؤمنا فسهل عليه أن يأتي عليه من مكان بعيد، فذكر مكانه لبعده ليستدل به على قوة محبة هذا الرجل للخير ودفع الشر.

أما في قصة موسى فالمقصود به العلم، والمقصود هو الرجل نفسه وما يحمله من نذارة لموسى أن الملأ يأتمرون له ليقتلوه، فبدأ بالآتي وهو الرجل قبل ذكر مكانه.

- ومنه قوله تعالى {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون}، وقال بعد ذلك {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون} فقد يظن قصير النظر أن تكرار ذلك مع تقديم الشفاعة في الآية الأولى، وتأخيرها في الثانية، وتأخير العدل في الآية الأولى، وتقديمه في الثانية، وقوله في الشفاعة في الأولى {يقبل}، وفي الثانية {تنفعها} قد يظن ظان أن هذا مجرد تفنن في أسلوب القرآن الكريم، ولكن الأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يقول {لا تجزي نفس عن نفس} ثم قال {ولا يقبل منها}، فعلى أي شيء يعود الضمير؟ والجواب: أن قوله {لا تجزي نفس عن نفس} يدل على وجود جاز، ومجزي عنه، فالجازي هو الذي ينافح ويشفع للمجزي عنه ليتجاوز الله عنه، والمجزي عنه هو الذي حق عليه العذاب، فلما كان في الآية الأولى يتكلم عن الجازي جاء بالشفاعة أولا، لأن الإنسان في البداية يشفع بالكلام، فإن لم ينفع الكلام لجأ إلى الأسلوب المادي وهو المقاضاة، فبدأ هنا في الآية بما يبدأ به الجازي في العادة، وهو الشفاعة للغير، فإذا لم

تقبل منه، لجأ إلى العدل، فنص تعالى هنا أنه أيضا لن يقبل منه، فحتى لا يتوهم متوهم أنه إذا لم تقبل الشفاعة لأنها مجرد كلام، فقد يقبل العدل والمقاضاة، جاء الله تعالى بنفس ذلك، وقد قال تعالى {ولا يقبل منها شفاعة}، فالجازي هنا شافع، ولا يقبل منه الشفاعة، بينما الآية الثانية تتكلم عن المجزي عنه، فالضمير يعود إليه، ومن عادة الإنسان أنه يستنفد ما في وسعه قبل أن يلجأ إلى الناس، فمن كانت له حاجة فإنه يتكلم بلسانه أولا، ثم يدفع من ماله، فإذا لم ينفع كل ذلك، لجأ إلى من يتوسط له، ولهذا بدأ في الآية الثانية بما يبدأ به المجزي عنه، وهو العدل، حيث لا يقبل منه عدل، وإذا لم يقبل منه عدل، فقد يلجأ إلى شافع، فأخبر تعالى أنه أيضا لا تنفعه الشفاعة، ولهذا جاء بلفظ {تنفعها شفاعة} فالشافعة هنا ليست منه، وإنما من غيره له، فقال {تنفعها} لأن الكلام عن المجزي عنه، بينما قال في الأولى {يقبل منها شفاعة} لأن الكلام عن الجازي، وبه يتبين أن كل آية جاء للحديث عن جزء من مشهد معين، وأنه ليس مجرد تكرار أو تفنن في الأسلوب.

- ومنه قوله تعالى {ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون} ثم قال بعدها {ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون}، فلماذا قدم القتل في الآية الأولى، وأخره في الآية الثانية؟ والجواب أن تعالى في الآية الأولى يتحدث عن المجاهدين، فالآية في سياق ما حصل في غزوة أحد، والغالب فيمن كان في الجهاد أن يكون موته بالقتل لا بالموت العادي، فقدمه، بينما يتحدث في الآية الثانية عن مطلق الحشر إلى الله ولقائه، وهذا الحديث عن بقية الناس، والغالب فيهم أن تزهق أنفسهم بالموت لا بالقتل، فقدمه.
- ومنه قوله تعالى {وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين} في سورة البقرة، وفي سورة الأعراف غاير السياق فقال {وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين}، وبين الآيتين اختلاف، والظاهر أن الآية الأولى من كلام الله لهم، لكن الله تعالى لا يخاطبهم مباشرة وإنما من خلال رسولهم موسى عليه السلام،

فجاءت الآية الثانية لتبين أن موسى أخبرهم، ولهذا قال {وإذ قيل} فبناه لما لم يسم فاعله، ليشمل أن الله تعالى قال لهم، وموسى بلغهم.

وينبني على ذلك فهم الاختلاف في الآية، ففي البقرة {ادخلوا هذه القرية}، وفي الأعراف {اسكنوا هذه القرية}، والدخول قبل السكن، فالله أمرهم بالدخول؛ لأن هذا أول خطوات السكن، فلا بد من الدخول ثم السكن، ولأن الله أراد أن يعقِّب بذكر الأكل منها مباشرة بعد الدخول كما سيأتي، فناسب أن يذكر لهم أن الطعام الرغد موجود بمجرد الدخول، أما موسى فأمرهم بالسكن؛ لأنه منتهى الأمر.

وفي البقرة {فكلوا منها}، وفي الأعراف {وكلوا منها}، وإذا نظرنا في سورة البقرة وجدنا أنها قد ذكرت اعتراض قوم موسى على طعامهم، فقالوا {يا موسى لن نصبر على طعام واحد} الآية، فناسب أن يأتي هنا بالفاء، أي ادخلوا القرية وكلوا منها مباشرة، أما في الأعراف فإن موسى أمرهم بالسكن، وهذا يقتضي التراخي، ولهذا قال {وكلوا}، ولهذا أيضا ذكر في البقرة {فكلوا منها حيث شئتم رغدا} ولم يذكر (رغدا) في الأعراف، لأن هناء الأكل يكون مع الجوع والحاجة إليه، والله تعالى ذكر لهم أنه بمجرد الدخول ستجود رزقا رغدا، وأيضا فإنه لما أسند القول إليه تعالى في سورة البقرة ناسب أن يذكر إفاضة النعم فقال {رغداً}، وفي الأعراف لما بني الفعل للمجهول لم تذكر.

وفي البقرة {وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة}، وفي الأعراف {وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا}، وفي الآيتين ذكر التخلية والتحيلة، أما التخلية فهي في قوله {وقولوا حطة}، وأما التحلية ففي طاعة الأمر {ادخلوا الباب سجدا}، ففي سورة البقرة الخطاب من الله، والله تعالى يريد منهم التزام أوامره، فبدأ بالأمر، ثم ذكر لهم التوبة من الذنب، أما في الأعراف فموسى لا يدري هل غفر الله لقومه أم لا، فناسب أن يأمرهم بالبدء بالتخلية ثم التحلية.

وفي البقرة {نغفر لكم خطاياكم}، وفي الأعراف {نغفر لكم خطيئاتكم}، والخطايا جمع تكسير، وهو يدلّ على الكثرة، أما (خطيئاتكم) فهو جمع مؤنث سالم، والجمع السالم يدل على

القلة، والعلّة -والله أعلم- أن آية البقرة الخطاب فيها من الله، فناسب أن تكون النعمة كبيرة، فوعدهم بغفران جميع ذنوبهم، أما آية الأعراف فالخطاب من موسى وهو لا يدري هل تغفر لهم جميع ذنوبهم أم لا فقال {خطيئاتكم}.

وفي البقرة {وسنزيد المحسنين} فلما كان الخطاب من الله كان عطاؤه أكثر، والمنة منه أكثر، فكأنه يقول: ليس ما سبق فحسب، بل وسنزيد المحسنين.

- ومنه قوله في سورة السجدة {أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون}، بينما قال في طه {الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى *كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى}، فقدم الأنعام في السجدة، وقدم الناس في طه، وذلك لأن آية السجدة ذكر فيها (الزرع)، والزرع لا يصلح أوله إلا للأنعام وإنما يحدث الحب في آخر أمره، أما في طه فقال {فأخرجنا به أزواجا من نبات}، والأزواج من النبات أعم من الزرع، وكثير منه يصلح للإنسان فقدّم.
- من اللطائف في آيات الجهاد في القرآن، تقديم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في جميع الآيات التي جمعت بينهما إلا آية بيعة الجهاد في سورة التوبة، وتقديم المال على النفس ليس لفضله، بل لأن الإنفاق في سبيل الله لازم لإعداد الجيوش، ولا يتم الجهاد إلا بالنفس بعد المال، أما آية {إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم} فهذا مقام المبايعة مع الله، وقد عرض الله سلعة غالية فوجب عل العبد أن يقدم أغلى ما يملك وهي نفسه، فلذلك قدمت النفس على المال هنا، فالمقام مقام عرض واستبدال أو ما يسمى بالمساومة، فقدم النفس لأنها أعز ما يملك الحي. [انظر أضواء البيان 184/8، العمدة في إعداد العدة ص 45]

اختلاف تعبير آيتين

- ومنه قوله تعالى {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون} في سورة البقرة، بينما قال في المائدة {وإذا قيل لهم تعالوا

إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون}، فقال في الأولى {لا يعقلون}، وفي الثانية {لا يعلمون}، والحكمة في ذلك أن مراتب الإدراك ثلاثة، وهي على درجات مرتبة، فأولها: الحس، وثانيها: العلم، وثالثها: العقل، فمن لا يحس ولا يشعر لا يؤمل فيه العلم أو العقل، ومن لا يعلم، قد يحس، لكنه لا يعقل، لأنه لا يمكن أن يعقل حتى يعلم، ومن لا يعقل، فإنه قد يحس، وقد يعلم، لكنه لا يعقل، فلما قال في الأولى {بل نتبع} قال لهم {لا يعقلون}، ولكن لما جزموا في الثانية وقالوا {حسبنا} أي هذه كفايتنا وفقط، قال لهم {لا يعلمون} فزاد في النفي والتقبيح، لأن من لا يعقل قد يعلم، بينما من لا يعلم لا يعلم ولا يعقل، فلما تعنتوا في اتباع الآباء، زاد الله تعالى لهم في وصف حال الآباء وأنهم لا يعلمون فضلا على أن يعقلوا.

- ومنه قوله تعالى {يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا}، وقال بعد ذلك {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم}، فنسب الرزق في الآية الثانية له، ولم ينسبه في الآية الأولى، والحكمة في ذلك أنه في المرة الأولى خاطب الناس جميعا، ومنهم من لا يؤمن برازق وخالق ومدبر، فخاطبهم كأنه يقول لهم: كلوا مما تجدونه في الأرض أمامكم، وإن لم تكونوا تنسبوه لله تعالى، ولكن من ذلك تخيروا منه الحلال.
- ومنه قوله تعالى في سورة الذاريات {إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق للسائل والمحروم} بينما قال في المعارج {وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحرم}، والسر في ذلك أنه يتكلم في المرة الأولى عن المحسنين، والمحسن من أتى بالفرائض، وزاد عليها بالنوافل، ولهذا ذكر قيامهم لليل، استغفارهم بالأسحار، ولما ذكر المال لم يذكر الزكاة، لأنهم محسنون، فهم يتصدقون بأكثر من الزكاة، ولهذا قال {حق للسائل} فهو نفل غير مقدر، ولهذا لم يقل {معلوم}، أما في سورة المعارج فهو يتكلم عن مطلق المؤمنين، فذكر أحوالهم من دوامهم على الصلاة، ومن أدائهم فرض الزكاة، فقال {حق معلوم}

- ومنه قوله تعالى في حق يحيى {وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا}، وذكر الله عن عيسى عليه السلام قوله {والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا}، فنكر السلام في الأولى، وعرفه في الثاني، وسبب ذلك أن السلام في الأول واقع من الله تعالى، فلم يحتج إلى تعريف، بل سلام منه جل وعلا كاف في السلامة، أما الثاني فقد وقع من عيسى فاحتاج إلى التعريف المفيد للعموم.

ولهذا جاء عن الحسن أنه قال: "إن يحيى وعيسى –عليهما السلام– التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي، أنت خير مني، فقال له الآخر: استغفر لي فأنت خير مني، فقال له عيسى: أنت خير مني، سلمت على نفسي، وسلم الله عليك"

- ومنه قوله تعالى في سورة الشعراء {فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين}، وفي سورة طه {فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا}، وقد اختلفت آراء المفسرين في ذلك، والأقرب والله أعلم أن ذلك يرجع إلى السياق، فكل من الآيتين سبقت في سياقها بإعلان الخوف من بطش فرعون وطغيانه، إلا أن الإعلان في سورة طه ورد على لسان الرسولين، فجاء لفظ الرسول مثنى، ولهذا قال تعالى {قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى}، أما في الشعراء فقد ورد الإخبار عن الخوف على لسان موسى وحدة، كما قال تعالى {قال رب إني أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون * ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون * قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون * فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين}

- ومنه أن المستعاذ به في السورة الفلق مذكور بصفة واحدة، وهي أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات: وهي الغاسق والنفاثات والحاسد. وأمّا في سورة الناس فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث: وهي الرب والملك والإله، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة. والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يقدر بقدر المطلوب، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين، وهذا تنبيه على أنّ مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت.

- ومنه قوله في آية {ومن أصدق من الله حديثا} وفي أخرى {ومن أصدق من الله قيلا}، وذلك لأن القول والحديث يشتركان في أنهما يأتيان للإخبار عن النفس أو عن الغير، لكن (الحديث) يكثر في الإخبار عن النفس، و(القول) يكثر في الإخبار عن الغير، ففي الآية الأولى {الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا} فهنا يتحدث الله عن نفسه، وفي الثانية {والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا}
- ومنه أن الله تعالى إذا قال {تلك حدود الله} وكان ما قبلها نواه، فإن يتبعها بقوله {فلا تقربوها}، أما إذا كان ما قبلها من الأوامر فإنه يقول {فلا تعتدوها} والسر في ذلك هو أن الشارع يريد حماية المؤمنين به من مجرد قرب النواهي، حتى لا تزل أقدامهم فيقعوا فيها، ولهذا قال تعالى {ولا تقربوا الزنا}، وقال تعالى {ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن}
- ومنه قوله تعالى {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل} فقال في حق القرآن: نزل، وقال في التوراة والإنجيل: أنزل، والحكمة في ذلك والله أعلم أن قوله {نزل} فيه إشارة إلى تكرار النزول، فالقرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة، كما أنزلت التوراة والإنجيل، بل أنزل على فترات بحسب الوقائع والاحتياج، ولهذا قال تعالى {وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك}

ولكن هذا التوجيه عليه إشكال، ففي قوله {وقال الذين كفرا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك}، فلو كان النزل جملة من خصائص لفظ (الإنزال) لجاءت الآية (وقالوا لولا أنزل)، وأيضا يشكل عليه قوله تعالى {وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا}، فلو كان التنزيل بمعنى النزول منجما لما عطف (نزلناه) على (فرقناه)؛ لأن العطف يقتضي في الأصل المغايرة، ويشكل عليه أيضا أن لفظ (نزل) جاء في حق غير القرآن، كما في قوله تعالى {كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة}

ولهذا جعل بعض العلماء الفرق بين (نزل) و (أنزل) أن الأولى بنيتها التضعيف، فتفيد المبالغة والتأكيد.

- ومنه قوله تعالى {ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير} وقوله بعد ذلك {ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد} فلماذا خالف في تذييل الآيتين؟

والجواب أنه في الآية الثانية يتكلم عن قوله {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء}، وعمل السوء فيما دون الشرك قد يعفو الله عن صاحبه، ولهذا قال {والله رؤوف بالعباد}، أما في الآية الأولى فإنه يتكلم عن جرم خطير، داخل في صميم الاعتقاد، وهو مسألة الولاء والبراء، فليس في هذه المسألة محاباة أو تساهل، ولهذا قال {وإلى الله المصير}

- ومن قوله تعالى {من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها} ولم يقل (يكن له نصيب منها) في الشفاعية السيئة، وقد قال بعض العلماء إن من معاني الكفل: النصيب المماثل، فاختيار النصيب أولا؛ لأن جزاء الحسنة يضاعف، واختيار الكفل ثانيا؛ لأن السيئة لا يجزى إلا مثلها.
- ومنه قوله تعالى في سورة هود {وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون}، بينما قال في سورة يوسف {ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون}، ولم يقل (يفعلون)، والسر في هذا والله أعلم أن بين الفعل والعمل عموم وخصوص؛ فالفعل ينسب للعاقل وغير العاقل، ويطلق على ما كان بإجادة أو غير إجادة، ولما كان بعلم أو غير علم، وبقصد أو غير قصد، أما العمل فقلما ينسب لغير العاقل، كأن يقال بقر عامل، فالفعل في الآية الأولى نسب إلى قوم نوح وهم كفار، والكفار أشبه بالدواب والجماد، وفي الآية الثانية نسب العمل –الذي هو من شأن العقلاء غالبا– لإخوة يوسف لأنهم كانوا مؤمنين.
- ومنه أنه لما أتى موسى النار وكلمه ربه قال الله في حق عصاه {فألقها فإذا هي حية تسعى}، بينما لما قابل موسى فرعون، قال الله في حق العصا {فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين}،

والفرق بينهما أن الحية تطلق على الصغير، بينما يطلق الثعبان على الكبير المخيف، فوصف الحية في الآية الأولى مناسب؛ لأن المطلوب أن يرى معجزة وليس المطلوب أن يخاف منها، لذلك تحولت العصا إلى حية صغيرة، بينما الموقف الثاني المطلوب فيه إخافة فرعون لعله يؤمن ويستيقن بصدق موسى.

ما يظهر أنه زائد وليس كذلك

- ومنه قول تعالى {وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض} فقد يقول قائل إذا كانوا هم أصلا في الأرض فكيف يقال لهم: اسكنوا الأرض، وهل كانوا في مكان غير الأرض حتى يسكنوا الأرض، والجواب أن قوله {اسكنوا الأرض} مقصود تماما، حيث جعل الأرض كلها ظرفا لهم، فكأنهم سيتشتتون، ويتفرقون، حتى تكون الأرض كلها على سعتها سكنا لهم، وهذا مصداق قوله تعالى {وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما}.
- ومنه قوله تعالى {فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب}، فهنا سأل زكريا ربه غلاما يرثه، لكن لم يقل (ويرث آل يعقوب) بل قال {ويرث من آل يعقوب}، والمراد بالإرث في الآية عند جمهور المفسرين ليس إرث المال، بل إرث الشرع والعلم والنبوة، لأن الأنبياء لا يورثون المال، ومن المعلوم أن آل يعقوب لم يكونوا كلهم أنبياء ولا علماء، فلهذا قال {من آل يعقوب}.
- ومنه قوله تعالى {فنبذوه وراء ظهورهم}، فما فائدة قوله {وراء ظهورهم} مع أنه قد يقال إن النبذ كاف، لأن النبذ هو طرح الشيء بقوة؟ والجواب أن نبذ الإنسان لشيء قد ينبذه عن يمينه أو شماله أو من أمامه، أما إذا نبذه وراء ظهره، فهو دليل وإشارة إلى أنه طرحه وأعرض عنه إعراضا كليا لا رجعة فيه، بحيث لا يراه أمامه، لأن الشيء إذا نبذته أمامك قد تنظر إليه مرة أخرى، فتحن له وتأخذه، أما إذا نبذته وراء ظهرك، هو إشارة إلى قمة الإعراض، وأنهم لا يريدون مجرد التفكير في أخذ الكتاب مرة أخرى.

- ومنه قوله تعالى {فخر عليهم السقف من فوقهم} فإن قيل السقف يخر من فوق، فلماذا أكد وقال {من فوقهم}، فالجواب أنه أكد ليجعل الخرور مباشرا لهلاكهم، كما تقول: سوف أخبرها فوق رأسك.
- ومنه قوله تعالى عن الأصنام التي تعبد من دونه {أموات غير أحياء}، فإن قيل لماذا قال {غير أحياء} وهو معروف من قوله {أموات}؟ فالجواب أن الميت، قد يموت من حياة سابقة، وقد تلحقه حياة بعد ذلك، فهناك قال تعالى هؤلاء الأصنام أموات، ولم يسبق لهم حياة، ولن يكون لهم حياة فكيف تعبدونها من دون الله تعالى.

كلمات مناسبة في سياقها

- ومنه قوله تعالى {الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم}، فالمفسرون يقولون: الظن هنا بمعنى اليقين، لكن السؤال هو: لماذا عدل عن لفظ اليقين إلى لفظ الظن، وكان يمكن أن يقول: الذين يوقنون، والجواب: أن أتى بلفظ الظن ليدل على أن مجرد الظن في وجود لقاء وحساب كاف في إقامة الحجة على الناس، فكيف إذا كان هناك يقين، ونظير ذلك في حياة الإنسان كثير، فإن الإنسان إذا كان يريد سلوك طريق معين، وقال له شخص: ربما ترى في هذا الطريق وحوشا وحيوانات مفترسة، فإن خبر ذلك الشخص ظن، لكنه مع ذلك سيحتاط، فإما ألا يسلك الطريق بالكلية، أو يأخذ معه سلاحا يحمي به نفسه من مخاطر الطريق، فإذا كان عند الإنسان مجرد ظن في لقاء الله، فهذا لوحده كاف لوجوب احتياطه واستعداده لهذا اللقاء، فكيف إذا كان اللقاء يقينا.

  ولهذا قال المعري:

  قال المنجم والطبيب كلاهما: لا تحشر الأجساد؛ قلت: إليكما
  إن صح قولكما، فلست بخاسر أو صح قولي، فالخسار عليكما

- ومنه قوله تعالى {قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا}، وهذا موافق للحديث (ما يصيب المؤمن من هم ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر عنه من خطاياه)، ولهذا قال في الآية {لنا} فجعل المصيبة لحسابهم لا عليهم.

- ومنه قوله تعالى {صبغة الله} فلم يقل: طلاء أو نحو ذلك، لأن الصبغة تتشبع في المصبوغ وتصير جزءا منه بخلاف الطلاء، فقد يزول بمزيل، ولهذا تكون الحناء صبغة بينما ما يوضع على الأظافر من زينة طلاء، ولهذا لا تزال الحناء إلا بالوقت مع تغير الجلد نفسه، بينما يمكن إزالة طلاء المانيكير ببعض المزيلات مباشرة.
- ومنه قوله {قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} ولم يقل (أو على) لبيان أن الاستعلاء إنما يكون مع الهدى، أما الانغماس فيكون مع الضلال.
- ومنه قوله تعالى {أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها}، وقال {فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه}، وقال {فأراد ربك أن يبلغا أشدهما}، فأسند الفعل الأول إلى العبد الصالح، وأسند الفعل الثاني إلى (نا) الفاعلين، وأسند الفعل الثالث إلى الله تعالى، وقد تنوعت أنظار العلماء في بيان المغزى من ذلك في وجوه كلها صحيحة

فقال بعضهم: إن العبد الصالح لما ذكر العيب، أضافه إلى نفسه، ولما ذكر القتل عبر عن نفسه بلفظ الجمع تنبيها على أنه من العظماء في علوم الحكمة، فلم يقدم على هذا القتل إلا لحكمة عالية، ولما ذكر رعاية مصالح اليتيمين لأجل صلاح أبيهما أضافه إلى الله تعالى؛ لأنه المتكفل بمصالح الأبناء لرعاية حق الآباء.

وقال بعض العلماء: إن الفعل الأول إفساد ظاهر فأسنده إلى نفسه، والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله، والثاني: إفساد من حيث القتل، وإنعام من حيث التبديل فجمع بين الأمرين.

وقال بعض العلماء: إن الفعلين الأولين (خرق السفينة وقتل الغلام) إنما كانا لدفع شر، وهو اغتصاب الملك الظالم لسفينة المساكين، وتوقع طغيان والدي الغلام وكفرهما، أما الفعل الثالث (إقامة الجدار) فقد كان لجلب خير لليتيمين، ففيه إشارة إلى أن الظلم–كما حصل من الملك الظالم– لا بد أن يقاوم ويواجه من قبل المصلحين، ولهذا أسند فعل الخرق إلى العبد الصالح، وكذلك الظلم بفساد العقيدة وإفساد الناس لا بد أن يواجه من قبل المصلحين، لكن لأن هداية

الناس من فساد العقائد لا تكون إلا من الله، جمع الضمير بقوله (فأردنا)، أما الإرادة الثالثة فلم تكن لدفع الشر، بل هي لجلب الخير، فأسندت إلى الله تعالى؛ لأنه مرجع الخير كله.

- ومنه قوله تعالى {ومن الناس من يشري نفسه}، فإن يشري هنا وإن كان ظاهرها أنها بمعنى باع، كما في قوله {وشروه بثمن بخس دراهم} فإنها هنا بمعنى باع بدليل قوله تعالى بعد ذلك {وقال الذي اشتراه من مصر}، ففي آية البقرة قوله {من يشري} يشمل الشراء والبيع، فمن الناس من يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله، ومنه فعل صهيب الرومي عندما دفع أمواله فداء وشراء لنفسه لأجل أن يهاجر، فهذا شراء للنفس ابتغاء مرضات الله، ومن الناس من يبيع نفسه كفعل الصحابة في سائر الغزوات من جهادهم وبذلهم لأنفسهم في سبيل الله، ومن بلاغة القرآن أنه لما ذكر الكفار قال عنهم {ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام} فلم يذكر بيعهم لأنفسهم في سبيل الباطل، لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن باطلهم لا يستحق أن يبيع الإنسان نفسه لأجله، لذلك تجدهم في الغالب يتخلون عن باطلهم عند الظروف الحالكة، بينما المؤمن ليقينه بوعد الله فإنه يبيع نفسه ابتغاء مرضات الله.
- ومنه أن الله تعالى قال لإبراهيم {ثم ادعهن يأتينك سعيا}، مع أن الأصل أن يدعهن فيأتين طيرانا، ولكن أراد الله أن يأتين سعيا لئلا يقال إنه قد اختلط عليه الطير الذي فرقه بالطير الذي في السماء.
- ومنه قوله تعالى {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب}، فإن قال قائل، لماذا حين قال: آيات محكمات، لم يقل: هن أمهات الكتاب، ليتناسب الجمع؟ والجواب أنه ليس كل آية أم، بل مجموع المحكمات تشكل أم ولب الكتاب، وهذا كقوله تعالى {وجعلنا ابن مريم وأمه آية} فليس ابن مريم لوحده آية، ولا أمه آية، بل هما مع بعضهما دون انفراد أحدهما آية، لأن عيسى لم يوجد كآية إلا بميلاده من أمه، وأم عيسى لم تكن آية إلا بميلاد عيسى عليه السلام.

- ومنه قوله تعالى {إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق}، وقوله {قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل} وغير ذلك من الآيات، وفيها أن الله تعالى يضيف القتل للأنبياء، ولا يضيفه للمرسلين، فالرسل لا تقتل، لأن لديهم شريعة جديدة لا بد أن تبلغ، فلا يمكن أن يصل أهل الكفر إلى الرسول ليبطلوا دعوته مباشرة، بل إن الله تعالى يحميه، بخلاف النبي الذي ليس له شرع جديد، وفي الآية الثانية لفتة مهمة وهي قوله {من قبل} ففيه إشارة إلى أن قتلهم للأنبياء قد انتهى، ولا يمكن أن يصلوا إلى شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن فعلهم هذا كان من قبل، أما الآن فلا يمكن، وفيه قوله {بغير حق} إشكال، فهل هناك قتل بحق؟ والجواب أن هذا لبيان الواقع.
- ومنه قوله {إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم}، فقد يقال: إن ذكر وصف الرحيم ينبئ بأن هذا التشريع والتخفيف بالرخصة من آثار الرحمة الإلهية، وأما الغفور فإنما يناسب أن يذكر في مقام العفو عن الزلات والتوبة عن السيئات؟ والجواب: عن هذا أن ما ذكر في تحديد الاضطرار دقيق جدا، ومرجعه إلى اجتهاد المضطر، ويصعب على من خارت قواه من الجوع أن يعرف القدر الذي يمسك الرمق ويقي من الهلاك بالتدقيق، وأن يقف عنده، والصادق الإيمان يخشى أن يقع في وصف الباغي والعادي بغير اختياره، فالله تعالى يبشره بأن الخطأ المتوقع في الاجتهاد في ذلك مغفور له ما لم يتعمد تجاوز الحدود؛ والله أعلم. [تفسير المنار 81/2]
- ومنه قوله تعالى {وما ربك بظلام للعبيد} فقد يتوهم شخص أنه هنا قد نفى المبالغة في الظلم، وهذا يقتضى ثبوت أصله، لأنه لم يقل: بظالم للعبيد، بل قال: بظلام للعبيد، والجواب أن المبالغة قد تكون أحيانا لنفس الحدث، كمن يأكل ثلاث مرات يوميا، لكن كل وجبة كبيرة جدا، وقد تكون المبالغة في تكرار الحدث، كمن يأكل وجبة عادية، لكن يكررها خمس مرات، فكلاهما يقال له: أكول، فالله تعالى لو ظلم كل واحد مظلمة واحدة، فظلم هذا، وظلم هذا، وظلم هذا،

لعد ظلاما، لأنه تكرار للظلم، وإن كان كل واحد منفردا ليس مبالغة، فنفى الله تعالى المبالغة في الظلم باعتبار الناس كلهم، ولهذا قال {بظلام للعبيد}، ولم يقل: للعبد.

- ومنه قوله تعالى {هو سماكم المسلمين من قبل}، فإن قيل إن المؤمنين بالرسل قبل محمد –صلى الله عليه وسلم– هم مسلمون أيضا، فلماذا خص هذه الأمة بقوله {سماكم المسلمين} مع أن من سبقنا مسلمون أيضا؟ والجواب أن من سبقنا هم مسلمون وصفا، أما هذه الأمة فانفردت بالتسمية نفسها، بحيث لا تطلق اسما إلا عليها، ولهذا لا يقول النصارى نحن مسلمون، ولا يقول اليهود نحن مسلمون، فمن آمن بعيسى قبل بعثة النبي –صلى الله عليه وسلم– فهو مسلم وصفا، لا اسما، فظهر الفرق.
- ومنه قوله تعالى {قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون}، فلماذا قال {آمنا} ثم قال {واشهد بأنا مسلمون} مع أن مقتضى الشهادة أن يشهد على قولهم الأول وهو {آمنا}؟ والجواب أن الإيمان أمر باطني لا يمكن أن يشهد عليه، ولا يمكنه إلا أن يشهد على شرائع الإسلام الظاهرة والتزامهم بها، وهو الإسلام، أما حقيقة الإيمان في قلوبهم فمردها إلى الله تعالى.
- ومنه قوله تعالى مرة في خطاب أهل الكتاب {قل يا أهل الكتاب}، ومرة أخرى {يا أهل الكتاب}، فمرة يخاطبهم مباشرة، ومرة يخاطبهم بواسطة نبيه –صلى الله عليه وسلم–، والحكمة في ذلك أن الله تعالى يتطلف معهم أحيانا فيجعلهم أهلا لخطابه، فيقول مباشرة {يا أهل الكتاب}، ومرة يقول لرسوله: قل لهم، ولو تأملت القرآن، لوجدت أن كل نداء من الله تعالى للمؤمنين بيا أيها، يكون بلا واسطة، فيقول {يا أيها الذين آمنوا}
- ومنه قوله تعالى {ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون} فلماذا اختار من صفاتهم قيامهم بالليل، وكيف يقول: وهم يسجدون، مع أنه لا تلاوة للقرآن في السجود، والجواب عن ذلك أن الله تعالى اختار قيامهم بالليل لأن اليهود لا

يصلون العتمة -العشاء- فميز المؤمنين بغير المؤمنين بصلاتهم بالليل، أو يقال بقيامهم بالليل مطلقا، وأما قوله {وهم يسجدون} فهو كناية عن مطلق الخضوع لله تعالى.

- ومنه قوله تعالى {وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال}، فتبوىء أي توطن، فهل القتال في توطين في مكان واحد، وهل هناك مقاعد للقتال، أم أن المقاتل يتحرك يمنة ويسرة بحسب حاجته وحاجة المعركة؟ والجواب عن ذلك أن الآية تتحدث عن واقعة معينة، وهي واقعة أحد، حين حدد النبي -صلى الله عليه وسلم- لبعض الصحابة مواطن معينة، فوق جبل الرماة، وأوصاهم ألا يبرحوا مكانهم حتى إن رأوا النصر أو الهزيمة، فهي مواطن لهم يجب أن يلتزموا فيها كأوطانهم، وهي مقاعد لهم يجب عليهم ألا يبرحوها، وقد يكون المعنى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصى صحابته بالثبات، وأن يتخذوا ساحة المعركة وطنا لهم ومكانا، فلا يبرحوها ولا يفروا مهما كان الأمر.
- ومن النكت هنا أن خالد بن الوليد هو الذي التف على المؤمنين في غزوة أحد، فكانت الهزيمة بمخالفة أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وظهرت عبقرية خالد، ثم أسلم خالد بن الوليد، فلماذا لم نر له عبقريات كالتي رأيناها من قبل؟ والجواب أنه قد ظهرت له عدة مواقف، ولكن ظهرت عبقرية خالد في غزوة أحد لأن بعض المؤمنين خالفوا أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإذا خالف المؤمنون أمر الله تعالى وأمر رسوله، وكلوا إلى أنفسهم، وإذا وكلوا إلى أنفسهم قابلوا المشركين بأنفسهم، فكان بشر مقابل بشر، فيظهر هنا تفوق خالد عليهم، بينما لما كان المؤمنون مع الله تعالى، ومع رسوله، فلا يكون هنا بشر مقابل بشر، وإنما رب البشر مع المؤمنين، بما فيهم خالد، فتظهر هنا عناية الله تعالى بالمؤمنين، وتتجلى فوق ما يفعله خالد وغيره من المؤمنين.
- ومنه ما حصل للمؤمنين في غزوة أحد من الهزيمة، فقد يقول قائل: أليس الله تعالى قادر على أن ينصر المسلمين في تلك المعركة، لا سيما وأنهم ما زالوا حديثوا عهد بقتال المشركين، ولم يسبق لهم قتال إلا في بدر؟ والجواب: أن من أعظم حكم الله تعالى أن حصل ما حصل في أحد، لأنه لو كان النصر حليف المؤمنين مع مخالفتهم أمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، لاستهان الناس بأمر

النبي صلى الله عليه وسلم وشريعته، ولقالوا: ها نحن انتصرنا مع مخالفتنا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم لم يحدث شيء، بل انتصرنا، فيهون في أنفسهم أمره صلى الله عليه وسلم.

- ومنه ما جاء في تفسير القاسمي عند تفسير قوله تعالى {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها}: "قال ناصر الدين: وقفت على نكتة في هذه الآية حسنة، وهي أن كل قرية ذكرت في الكتاب العزيز فالظلم ينسب إليها بطريق المجاز، كقوله {وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة} إلى قوله {فكفرت بأنعم الله}، وقوله {وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها}، وأما هذه القرية (في سورة النساء) فينسب الظلم إلى أهلها على الحقيقة؛ لأن المراد بها مكة، فوقرت عن نسبة الظلم إليها؛ تشريفا لها، شرفها الله تعالى".
- ومنه قوله تعالى {اليوم أكملت لكم دينكم وأكملت عليكم نعمتي}، ففرق بين (أكملت) و (أتممت)، ولا تصلح واحدة في محل الأخرى، لأن: أكمل الشيء أي أنهاه على مراحل متقطعة، بينها فواصل زمنية، أما الإتمام فهو إنهاء الشيء بلا انقطاع، ولهذا جاء فيمن عليه قضاء أيام أفطرها من رمضان، أنه يكمل الصيام، ولهذا قال تعالى {ولتكملوا العدة}، ولو قال {أتموا} لكان معناه ألا يفطر في القضاء، وقال تعالى في الصيام {ثم أتموا الصيام إلى الليل}، لأنه لو قال (أكملوا الصيام) لكان يجوز أن يفطر في وسط النهار، ثم يكمل إلى الليل، والواجب أن يكون الصيام متتابعا من الفجر إلى غروب الشمس، وقال تعالى {وأتموا الحج والعمرة لله}، ليدل على أنه لا يجوز للمحرم أن يتحلل في الحج حتى ينتهي من شعائره، فقوله {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} يدل على أن الدين نزل على فترات متقطعة، أما نعمة الله على عباده فهي لم تنقطع.
- ومنه قوله تعالى {وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها} فذكر في أكل السمك (تأكلوا)، وذكر في اللؤلؤ (تستخرجوا) وهو فعل سابق وزائد على الانتفاع باللؤلؤ، وسر ذلك أنه لما كان السمك قوتا للناس، وكان الناس يحتاجون له، وهو من قوام

حياتهم، جعله الله مسخرا لهم، فليس عليهم إلا الأكل منه، وهم يحصلونه بأيسر طريق وأسهله، فشبكة توقع مئات الأسماك، ويأكل الناس منها، أما اللؤلؤ فليس من قوام حياة الناس، وإنما هو زينة وترف، ولما كان كذلك، كان من أراده عليه أن يبذل لأخذه، فقال تعالى {تستخرجوا}

- ومنه قوله تعالى {قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطَك المستقيم}، مع أن الأصل أن الفعل (قعد) إذا ذكر فيه ما قُعد عليه، فإنه يحتاج إلى حرف الجر، كما تقول: قعدت على الأريكة، ولا تقول: قعدت الأريكة، وكما قال تعالى {إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون}، بينما في هذه الآية حذف حرف الجر (على)، وأثبته فيما بعدها فقال {ثم لآتينهم من بين أيديهم من خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم}، وهذا من بلاغات القرآن الكريم؛ لأن الشيطان لا يستطيع القعود على صراط الله المستقيم، فهو طريق طاهر وشريف، وأرفع وأسمى من أن يقعد عليه الشيطان اللعين الرجيم، لأن حرف (على) يفيد الاستعلاء، كما قال تعالى {يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما اتيتك وكن من الشاكرين}، وكما قال تعالى {ولقد اخترناهم على علم على العالمين}، فيبقى سلطان إبليس على البشر محصورا في الذين يتبعونه، والذين استطاع أن ينفذ إليهم من جهاتهم الأربع، ولم يذكر هنا جهة (الفوق) و (التحت)؛ لأن من تمثل الفوقية الألهية، والتحتية العبوية، استحال أن يأتيه الشيطان من هاتين الجهتين.

ما يظهر فيه تعارض

- ومنه قوله تعالى {اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا}، والشراء هو الحصول على سلعة مقابل ثمن، والباء تدخل على الثمن، فإذا قلت: اشتريت ساعة بدرهم، تكون الساعة هي السلعة، والدرهم هو الثمن، وهنا قال {اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا}، والثمن لا يشترى، وإنما يُدفع، وسبب ذلك أن الله تعالى يريد أن يبين لنا انقلاب الموزاين عند هؤلاء الناس، فقد جعلوا السلعة ثمنا، وجعلوا الثمن سلعة، وأيضا نلاحظ أن الثمن يساوي السلعة في العادة، فأنت تأخذ السلعة وتعطي

للبائع ثمنا يساويها، بينما هؤلاء لقلة عقولهم دفعوا ثمنا باظها وهو آيات الله، مقابل شيء زائل وهو حطام الدنيا.

- ومنه قوله تعالى في سورة المنافقين {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون}، فإن قيل كيف يؤكد قولهم بقوله {والله يعلم إنك لرسوله} ثم يقول بعد ذلك {والله يشهد إن المنافقين لكاذبون}؟ والجواب على ذلك بأن قولهم {نشهد} أي نقر كأننا نشاهد بحيث يطابق الواقع الخبر، ويطابق الظاهر الباطن، ومطابقة الظاهر للباطن هم فيه كاذبون.
- ومنه أن الله تعالى قال {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له}، مع أن مادة الضعف تدل على القلة، والله تعالى يريد أن يبين الكثرة، والسر في ذلك أنك إذا رزقت بالأكثر، ونظرت إلى الأقل وجدته ضعيفا وقليلا بالنسبة للأكثر.
- ومنه قوله تعالى في وصف شجرة الزقوم {طلعها كأنه رؤوس الشياطين}، ونحن لم نرى طلعها، ولم نرى رؤوس الشياطين، فكيف يشبه الله تعالى ما لم نره بما لم نره؟ والجواب على ذلك أنه لو شبهه بصورة قبيحة، لاحتمل أن تكون تلك الصورة القبيحة ليست بذاك القبح عند بعض الناس، فإن الناس تختلف أذواقهم في الجمال والقبح، ولهذا يختلفون في النساء جمالا وقبحا، لذلك فتح التشبيه بأمر يستبشعه كل أحد، وهو الشيطان، وكل أحد يتصور الشيطان في نفسه بأقبح صورة في نفسه هو، وإن لم تكن قبيحة عند غيره، ولهذا ترك الله تعالى التشبيه ليسبح القاريء في تشبيه قبح شجرة الزقوم إلى أقبح منظر يتخيله عقله، ويصل إليه ذهنه، فكان التشبيه غير المرئي بغير المرئي أوقع وأولى.
- ومنه قوله تعالى {بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته}، فإن هذه الآية تخالف المعهود في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} فيطلق على الخير كسبا، وعلى الشر اكتسابا، والجواب: أن الله تعالى حين يطلق على الشر اكتسابا، فهذا معناه أن الشر يحتاج إلى انفعال وفعل زائد، بينما الخير الأصل وطبيعة الإنسان وسجيته، ولهذا ترى الذي يأكل

من ماله أو من مال أبيه لا يراقب من حوله، بينما الذي يأكل من مال غيره أو يسرق، فإنه يتلفت يمينا وشمالا ويأخذ احتياطاته، وينفعل انفعالا زائد عن الأكل الحلال، وتعظم المصيبة وتكبر إذا صار الشر كسبا، بمعنى أن الإنسان صار يكسبه كأنه طبيعة له وسجية، وصار الأصل عنده كسب الشر، بل صار الشر له حرفة سهلة، ولهذا قال في تذييل الآية {وأحاطت به خطيئته}، فإذا وصل الإنسان لهذه الدرجة من الدنو، حق عليه العذاب، {فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}

- ومنه قوله تعالى {والذي كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات}، فهل كانوا في النور ثم خرجوا منه إلى الظلمات؟ قد يتصور هذا في حق من ارتد عن دين الإسلام، لكن الآية عامة، فكيف كانوا في نور، وخرجوا منه، والجواب إما أن النور هنا بمعنى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أو أن الإخراج من الشيء لا يستلزم الدخول فيه، كما قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام {إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله}، وهم لم يدخل في ملة قومه حتى يتركهم، ولكن المعنى أنه جانبها ولم يدخلها، ومنه قوله تعالى {قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها} أي إن دخلنا في ملتكم، فهم لم يكونوا فيها حتى يعودوا إليها، ومنه قوله تعالى {ومنكم من يرد إلى أرذل العمر} فهو لم يكن في أرذل العمر حتى يرد إليه، ولكن المعنى منكم من يصير إلى أرذل العمر، وكما تقول: أخرجني فلان من حسبانه، أي لم يدخلني فيه أصلا.

وفي الآية السابقة جاء بالجمع في قوله {أولياؤهم} وبالجمع في قوله {يخرجونهم}، لكنه لم يقل {أولياؤهم الطواغيت}؟ والجواب أن الطاغوت يطلق ويراد به الجمع، كما تقول: هذا عدل، وهذان عدل، وهؤلاء عدل، ولهذا قد تنظر للعقل في الطاغوت فتذكره، وقد تنظر لعدم العقل فيه فتؤنثه، كما في قوله تعالى {والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها}

- ومنه قوله تعالى {زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث}، ثم قال بعدها {قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا

عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله}، ففي الآية الأولى ذكر النساء والبنين والذهب والفضة والخيل والأنعام والحرث، وفي الآية الثانية ذكر اثنين مقابلين فقط، وهما الجنات، وتقابل الحرث، والأزواج المطهرة، وتقابل النساء، فلماذا لم يأت بمقابل لبقية الشهوات المذكورة في الآية؟ والجواب إما أن نقول إنه ذكر السور، وما بينهما داخل، فإنه قد بدأ في الآية الأولى بالنساء، وانتهى بالحرث، وفي الآية الثانية ذكر مقابل البداية أي النساء، وهو الأزواج، وذكر مقابل النهاية أي الحرث، وهو الجنات، وما بينهما داخل طالما أن البداية قد دخلت وكذلك النهاية، أو أن نقول إنه قد ذكر أعظم الشهوات، وهي شهوة النساء وتتمثل في الجنس، والرزق المباشر وهو الحرث، لأن المال ليس رزقا مباشرا، بمعنى أنك لو جعت فلن تأكل مالا، بل ستشتري بهذا المال، وكذلك الخيل والأنعام، والله أعلم.

- ومنه قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة} فقد أتى بهذه الآية والآيات بعدها ضمن آيات تتحدث عن قضية أخرى، وهي قضية الجهاد والهزيمة في أحد، فما علاقة الربا بذلك؟ والجواب أن الله تعالى بدأ بالحديث عن غزوة أحد، وفي خضم الأحداث، وتشوق النفس لعواقب الأمور ومجريات الأحداث، قطع الله ذلك بالحديث عن الربا وأكله، كأنه يقول: إن المال والغنيمة التي كانت سببا في هزيمتكم في أحد، هو أيضا قد يكون سببا في وقوعكم فيما حرم الله من الربا، ولأنكم قدمتم المال وحبه، فقد أصابتكم الهزيمة، وكذلك إذا قدمتم حب المال وتعاملتم بالربا طمعا في المال وزيادته، فستهزمون في سائر حياتكم، وبذلك يتبين أن القرآن الكريم لا يسجل تاريخا مجردا، وإنما يستغل الأحداث ليرسخ منهج الحياة، وأسس الدين.
- ومنه قوله تعالى {وتلك الأيام نداولها بين الناس} فكيف يقول الله تعالى ذلك مع أنه وعد المؤمنين بالنصر، وقال تعالى {ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون}؟ والجواب: أن الله تعالى قال في الآية {بين الناس} ولم يقل: بين المؤمنين والكافرين، فما دام المؤمنون مجرد ناس، فهم مع الناس، يداول الله بينهم الأيام، مرة لهم ومرة عليهم، وإنما يكون

المؤمنون مجرد ناس إذا ابتعدوا عن أمر دينهم، وعقيدتهم، ولهذا إنما ينتصر المؤمنون بإيمانهم وعقيدتهم، فإذا تخلوا عن ذلك، كانوا أمام أعدائهم ندا لند، وصارت الغلبة للأسباب الحسية، وحينها تتداول الأيام بين الناس، كما أخبر الله تعالى، ولهذا قال تعالى في آية أخرى في نفس السورة {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم} فوصف الفئتين بأنهم ناس، مما يشير إلى بعدهم عن الإيمان، وبعد الإيمان عنهم، فالناس في أول الآية هم المنافقون، والتي بعدها هم كفار قريش.

مقاصد أخرى

- ومنه قوله تعالى {وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}، وفي الآية عدة لطائف.

منها أنه قال {آمنوا بما أنزل الله} ولم يقل بالقرآن، ليكون شاملا لكل كتاب أنزله الله بعد التوراة، وعَدَل عن التصريح بالقرآن ليذكر الدعوة والحجة في كلام واحد، وهو {أنزل الله} فإذا كان منزلا من عند الله فحري بكم أن تؤمنوا به.

ولم يقل (بما أنزل الله على محمد)، لأنه ذلك لا مدخل له في الإلزام، ولأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضغانهم ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح.

وقال {نؤمن بما أنزل علينا} وهو متضمن لكفرهم بما أنزل على غيرهم، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر، فأراد القرآن أن يبرزه، فقال {ويكفرون بما وراءه}، وهذا شامل للكفر بالقرآن المنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم-، وكذلك بالإنجيل المنزل على عيسى، وكلاهما وراء التوراة.

ثم بدأ في الرد على كفرهم بقوله {وهو الحق مصدقا لما معهم}، ثم عاد للرد على قولهم {نؤمن بما أنزل علينا}، وذلك في قوله {فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين}، وعدل

بالإسناد عن وضعه الأصلي وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم، فلم يقل: "فلم قتل آباؤكم أنبياء الله، واتخذوا العجل، وقالوا سمعنا وعصينا؟"، لأنه لو قال كذلك، فقد يقولون: "وما لنا ولآبائنا؟ تلك أمة قد خلت، ولا تزر وازرة وزر أخرى"، وحينئذ سيتعقب قولهم "وأنتم مثلهم، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم"، ولكنه جمع ذلك كله بقول {فلم تقتلون}

وزاد هذا المعنى ترشيحا بإخراج الجريمة الأولى وهي جريمة القتل في صيغة الفعل المضارع تصويرا لها بصورة الأمر الواقع الآن، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزكية.

ولو ترك التعبير بهذه الصيغة {أنبياء الله} بلفظ عام، فقد يفتح بابا من الإيحاش لقلب النبي –صلى الله عليه وسلم–، وبابا من الإطماع لأعدائه في نجاح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله.

فقيد الأمر بقوله {من قبل}، ليقطع بهذه الكلمة أطماعهم في قتل النبي –صلى الله عليه وسلم– . [النبأ العظيم ص153]

- ومنه قوله تعالى {ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف} فلم يبين الله تعالى من هؤلاء، ولا أسماءهم أو أوصافهم، كما لم يبين لنا ذلك في كثير من قصص القرآن، كقوله تعالى {أو كالذي مر على قرية}، وقوله {ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا}، وقوله {واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها}، والسر في ذلك أن القرآن الكريم يأتي بهذا الإبهام ليشير إلى أن ما حصل في تلك القصة والواقعة ليس خاصا بأولئك الأقوام، بل قد يحصل في أي زمان أو مكان بحسبه.

فضرب الله مثل قصة فرعون لكل حاكم يريد أن يعبد في الأرض، وأهل الكهف هي قصة كل فئة مؤمنة هربت من طغيان الكفر وانعزلت لتعبد الله، وقصة يوسف عليه السلام هي قصة كل أخوة نزغ الشيطان بينهم فجعلهم يحقدون على بعضهم، وقصة ذي القرنين هي قصة كل حاكم مصلح أعطاه الله سبحانه الأسباب في الدنيا ومكنه في الأرض، فعمل بمنهج الله وبما يرضي الله،

وقصة صالح هي قصة كل قوم طلبوا معجزة من الله، فحققها لهم فكفروا بها، وقصة شعيب عليه السلام هي قصة كل قوم سرقوا في الميزان والمكيال.

أما إذا تحدث القرآن عن شيء لا يحدث ولا يتكرر، فإنه يشخص صاحب القصة، كقوله تعالى {ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها}، وقوله تعالى {إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي}

- ومنه قوله تعالى {فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم}، فظاهره أنه قد فرق البحر عدة فروق، لأنه لو فرق فرقا واحدا لما قال {كل فرق} وهذا الظاهر يؤيده أن الله تعالى يمنّ على بني إسرائيل بتعديد مصادر الرزق لهم حتى لا يتزاحموا، ولتعظم منته عليهم، ولهذا قال {فانفجرت منه اثتنا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم}.
- ومنه قوله تعالى {واترك البحر رهوا} فقد يقول قائل: لماذا لم يأمره تعالى بضرب البحر مرة أخرى لكي تكتمل المعجزة، فيحصل له بضرب البحر انشقاقه، وبضربه مرة أخرى رجوعه كهيئته، والجواب أن الله عز وجل يريد أن يرينا أنه بالسبب الواحد قد أنجى وأهلك، فأنجى موسى في اليم، وأغرق فيه فرعون، ليدلنا على أن الأسباب وإن كانت تجري بنسق كوني واحد، إلا أن أمر الأسباب إلى رجع إلى مسبب الأسباب، فلا قانون حينئذ، لأن الله تعالى يفعل ما يشاء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.
- ومنه قوله تعالى {ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده} ولم يقل (فلا مرسل لها)، وقد قال بعض المفسرين إن مرجع الضمير في قوله {له} للرحمة، وقال آخرون وهو الأقرب إن مرجع الضمير أعم، فيشمل كل ما يمسكه الله عز وجل من الغضب والشرور، أو الرحمة، وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى يفتح لعباده الرحمة، بينما يمسك عنهم أشياء كثيرة تضرهم ولا تنفعهم، وهذا مطابق لما جاء في الحديث (إن رحمتي سبقت غضبي).

- ومن ذلك أيضا قوله تعالى: {هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين} فوصف ضيف وهي مفرد بالجمع مكرمين؛ ذلك لأن ضيف تدل أيضا على الجمع، فالضيف من انضاف على البيت وله.
- ومنه قوله تعالى {فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما} فلماذا عبر بـ {يطوف} بتشديد الطاء، ولم يعبر بتخفيفها؟ والجواب أن الطواف بالشيء أن تجعل البداية غاية، فتجعل ما بدأت به نهاية لك وهكذا، ولأن المرء يبدأ بالصفا، ثم يذهب للمروة، ثم يعود للصفا فيسمى هذا طوافا، ولأنه يتكرر فشدد الطاء للتكرار.
- ومنه قوله تعالى {ويكلم الناس في المهد وكهلا}، فكلامه في المهد آية من آيات الله، ومن العجيب أنه ليس هناك ذكر في التوراة لكلام عيسى عليه السلام في المهد، مع أن مجرد كلام طفل في المهد يعد حادثة عجيبة، يسعى الناس في تناقلها والإخبار بها، بل ويسعون إلى معرفة كنه الكلام الذي تكلم به ذلك الصبي في المهد، والجواب على هذا يسير، وهو أن الكلام الذي قاله عيسى عليه السلام في المهد لا يسعف النصارى في اعتقادهم التثليث، لأن أول كلمة قالها المسيح {إني عبد الله}، فحقيقته أنه عبد لله تعالى، وليس هو الله أو ابنا لله، وفي قوله {كهلا} إشكال، وهو كيف يكون الكلام في مرحلة الكهولة أمرا عجيبا وآية من آيات الله؟ والجواب أن حادثة رفع المسيح، أو في اعتقاد النصارى الصلب كانت قبل فترة الكهولة، وإذا كان ذلك قبل فترة الكهولة، والله تعالى ذكر أنه يكلم الناس وهو كهل، فهذا فيه إشارة إلى أنه لا بد أن يتكلم في تلك المرحلة، ولا بد أن يتكلم أيضا على وجه فيه آية، وليس بتدرج حياة الناس الطبيعة، حيث يعيش الرجل شابا ثم كهلا، والناس يرونه يتكلم في كلا المرحلتين، ومعنى ذلك أن عيسى عليه السلام سينزل مرة أخرى كما دلت عليه الأحاديث ليكون كلامه في الكهولة آية أخرى، كما كان كلامه في المهد آية.
- ومنه قوله تعالى {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها}، فإن قوله {تولى} يشمل التولي، وهو الذهاب في الأرض، ويشمل تولي ولاية، فهو مفسد في كلا الحالتين.

- ومنه قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة} فإن قوله {كافة} يشمل ادخلوا في السلم أي الإسلام كلكم، ويشمل ادخلوا في الإسلام كله بجميع شعائره وشرائعه، فإن قيل ما الذي يرد الناس الدخول كلهم في الإسلام، أو يرد بعض الناس عن الدخول في الإسلام كله، فالجواب أنه الشيطان، ولهذا قال بعد ذلك {ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين}.
- ومنه قوله في آية اعتزال النساء في الحيض {إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين} فمناسبة ذلك التطهر ظاهرة، حيث قال قبلها {ولا تقربوهن حتى يطهرن}، أما ذكر التوبة، فإنه مناسب أيضا، فإنه لما ذكر التطهر الحسي، ذكر التطهر المعنوي من الذنوب والآثام.
- ومنه قوله تعالى {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب} ففي الآية إشارة إلى ما دلت عليه آيات أخرى من تحريف الكتب السابقة، وذلك في قوله {نصيبا} فهم لم يؤتوا الكتاب كله، بل كل ما لديهم من الحق هو نصيب من الكتاب، وغير هذا هو من تحريفهم.
- ومنه قوله تعالى {وليس الذكر كالأنثى}، فهذا إن كان من كلام أم مريم، فمعناه أنها لما نذرت ما في بطنها محررا، ثم خرجت أنثى، قالت: يا رب إنها أنثى، وليس الذكر كالأنثى في تحمل أعباء ذلك النذر حين قالت {نذرت لك ما في بطني محررا}، وإن كان من كلام الله تعالى، فكأن الله تعالى يقول لها: ليس الذكر الذي كنت تتمنينه مثل الأنثى التي جاءتك، فإن الذكر الذي كنت تريدينه نذرا، قد رزقتك بدلا عنه أنثى أجعل فيها آية من آيات الله تعالى، فليس هي بخصوصها كالذكر المنذور، بل هي أعلى منه من جهة كونها محل آية من آيات الله تعالى.
- ومنه قوله تعالى {وكفلها زكريا} على قراءة التشديد، ومعناه أن مسألة كفالتها جاءت من الأعلى من عند الله، فزكريا في تلك المسألة كالمسير، تصديقا لقوله تعالى {فتقبلها ربها بقبول حسن}
- ومنه قوله تعالى {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله}، ففيه إشارة إلى الاستعداد لصد الكفر بمجرد الإحساس به، دون الانتظار حتى يدهم الكفر كله.

- ومنه أنه جاء بقوله {ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله}، بعد قوله {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها}، فكأنه يقول: وإذا حصل أنه منع جبار مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها، فلا يمنعنكم هذا من الاتصال بربكم وعبادته، فإن لله المشرق والمغرب.
- ومن اللطائف قوله تعالى {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين}، فإن إبراهيم لحرصه على أمته طلب من الله تعالى أن يجعل من ذريته أئمة لتعلو درجاتهم، ويقتدي بهم غيرهم، لكن الله عز وجل نبهه هنا إلى أنه لا ينال عهده الظالمين، وفيه إشارة إلى أن من ذريته من سيكون ظالما، وبعد آيات قال إبراهيم {وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير}، وهنا أخذ إبراهيم بالأدب الأول فقيد لفظه، فقال {من آمن منهم بالله واليوم الآخر}، لأن الله تعالى نبهه في البداية إلى أن الظالم لا حق له في طلبه الأول، فقيد هنا المسألة بمن آمن، لكن الله عز وجل من رحمته وحكمته، لفته هنا أيضا، فقال {ومن كفر فأمتعه}، أي أن هذا الاستثناء وإن كان مأخوذا بسبب الطلب الأول، إلا أنه ليس في موضعه، لأن الرزق – أي رزق الأبدان – لا يختلف فيه مسلم عن كافر، فالمسلم والكافر يرزقهم الله تعالى في هذه الدنيا وإن كان يعاقب الكفار في الآخرة، ووجه الفرق بينهما أن طلب إبراهيم في المرة الأولى كان في مسألة الإمامة، وهي مسألة لا ينالها إلا المؤمنون، وطلبه في المرة الثانية في مسألة الرزق الدنيوي، وهذا ينالها المؤمن والكافر، فكان لا بد من الاستثناء في المرة الأولى، وعدم الاستثناء في المرة الثانية.
- ومن اللطائف أن في القرآن نفسه ما يدل على أن إبراهيم ليس أول من بنى الكعبة، وذلك من وجوه:

الأول: قوله تعالى {وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل}، فهو رفع للقواعد وليس بناء جديدا، فمعناه أن إبراهيم كان عليه العمل في البعد الثالث دون الطول والعرض.

الثاني: قوله تعالى {وإسماعيل}، فدل على أن إسماعيل شاركه في البناء، فلا بد أن يكون شابا ليساعد أباه، بينما عندما ترك إبراهيم هاجر وولدها في ذلك المكان قال {ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم}، فدل على وجود البيت المحرم قبل ذلك.

الثالث: قوله تعالى {إن أول بيت وضع للناس}، والناس لفظ عام يشمل كان الناس، وقوله {وضع} يدل على أنه موضوع لأجل الناس، والواضع هو الله تعالى، بأن يأمر ملائكته، فالبيت موضوع للناس ومجعول لهم، فهو قبل إبراهيم.

الرابع: ما دلت عليه السنة من أن الأنبياء كانوا يحجون، وما ثبت في البخاري ومسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة)

- ومن اللطائف في قوله تعالى {إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون} وقوله {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا}، فصحيح أنهم وجدوا آباءهم على الشرك، لكنهم في الحقيقة كاذبون في ادعاء اتباع الآباء، لأنهم لو كانوا متبعون حقيقة للآباء، لما كان هناك حاجة لإرسال الرسل، لأن الله تعالى أرسل آدم عليه السلام بالمنهج، ولو كان من بعده اتبع الآباء، ومن بعدهم كذلك، لكان الكل على منهج أبينا آدم عليه السلام، لكنهم يغيرون ما وجدوا عليه الآباء، ولهذا حصل الشرك وأنزل الله الكتب وأرسل الرسل، وإنما هم متبعون للآباء فيما لهم فيه هوى، وليسوا متبعين حقيقة للآباء.
- ومن اللطائف قول الله تعالى عن إبليس في خطابه لمن أغواهم {وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي} فالسلطان هو القوة، والقوة تشمل قوة الفعل، وقوة الحجة، فقوة الفعل هي التي ترغمك على أن تفعل، وقوة الحجة هي التي تقنعك بأن تفعل، والشيطان لم يمارس أي من السلطانين على أحد، فلم يرغم أحد على فعل شيء مع كرهه له، ولم يقنع أحدا بحجة صحيحة وعقلية، وإذا كان الأمر كذلك فماذا حصل؟ إن الشيطان يزين مجرد تزيين، والمرء

إذا اتبع هوى نفسه، استحب هذا التزيين، وأغلقت عليه الأبواب، فصار يرى الزخارف والزينة بمثابة الحجة العقلية للفعل، وإلا فلو تأمل فيها العاقل لما عمل منها شيئا.